اسم الدرس : تفسير سورة النازعات ج١

تصنيف الدرس :خطبة

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم

بإذن الله نستكمل تفسير جزء عمَّ، كنا بفضل الله عز وجل ومن كرمه سبحانه وتعالى، أنهينا سورة النبأ، إن شاء الله نبدأ سورة النازعات، وكما قلنا نؤكد دائمًا أن الجزء الثلاثين مليء بالمعاني العظيمة المتنوعة، لكنه يُركِّز أساسًا على الدار الآخرة، ولقاء الله عز وجل، وسنجد ونحن نتدارس معًا الجزء الثلاثين، أن التركيز دائمًا على انقسام الناس إلى فريقين، "وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى"[النازعات:٤٠] ."وأما من طغى"[النازعات:٣٧] ، تجد "فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا"[الزلزلة:٧]. "ومن يعمل مثقال ذرة شرًا"[الزلزلة:٨]،" إن الأبرار لفي نعيم"[الإنفطار:١٣]. "وإن الفجار لفي جحيم"[الإنفطار:١٤] تجد أن الموضوع دائمًا متكرر طوال الجزء الثلاثين، أيضًا لا ننسى الآيات القصيرة السريعة المتتالية التي تخاطب الغافلين وتنبههم، هزات عنيفة متتالية مُزلزلة تزلزل الناس.

نبدأ سويًا تدارس سورة النازعات، نريد دائمًا أن نتخيل ونحن نفتتح السورة، ماذا نسمع؟ أو ماذا نجد؟ كما سنفعل عندما يكرمنا ربنا –إن شاء الله– بمدارسة سورة العاديات، أول ما تفتتح سورة العاديات تسمع مشهدًا صوتيًا، صوت الخيل وهي تجري، أول ما فتحنا سورة النبأ سمعنا مشهد أناس جالسين يتهامسون ويتكلمون، وحينما اقتربنا منهم وجدناهم يتساءلون، اقتربنا منهم أكثر وجدناهم يتساءلون عن يوم القيامة.

فأول ما نفتح مشهد سورة النازعات، هذا مشهد عجيب جديد، أول مشهد: مشهد إنسان يحتضر. تخيل أنك تفتتح السورة فسمعتَ صوت حشرجة نفس إنسان يحتضر، يموت لكن ميتةً صعبة جدًا جدًا جدًا روحه تُنزع منه، أول مشهد في السورة!

بسم الله الرحمن الرحيم "والنازعات غرقا"[النازعات:١] قسم من الله عز وجل، وهو لا يحتاج أن يقسم سبحانه وتعالى ولا يقسم إلا بعظيم.

أصناف من الملائكة

هذا أول مشهد. الله عز وجل يُقسِم بأصناف من الملائكة: **والنازعات – والناشطات – والسابحات – فالسابقات – فالمدبرات**.. خمسة أقسام متتالية بالملائكة، منها القَسَمُ ومنها المعطوف (فالسابقات – فالمدبرات) بحرف الفاء، سنتكلم عن الخلاف في أنواع الملائكة التي ذُكِرت، الشاهد أن الراجح في الغالب أن هذه ملائكة. والمفسرون اختلفوا ما هي النازعات؟ هل هي الخيل، أم القوس، أم المؤمنون، أم الغزاة؟ إنما الأشهر أن هذه ملائكة، الملائكة تنزع روح الكافر.

أول مشهد في السورة مشهد ملائكة تنزع نفس الكافر، تنزعه بقمة الشدة "والنازعات غرقًا" وسنفسر معنى كلمة (غرقًا)، هذا مشهد مرعب لأول لحظة، فمشهد سورة النبأ كانوا مازالوا يتكلمون ومازالوا يتساءلون، والآيات في سورة النبأ هزَّتهم وذكرتهم بالدار الآخرة ولكن دون فائدة، المشهد هنا في سورة النازعات مشهد مخيف أكثر حتى يستجيبوا لكلام الله عز وجل.

أقسام من الملائكة مختلفة، جنود الله عز وجل منتشرة في الكون، ولنتذكر كلمة جنود هذه، عندما تأتي في السورة "فحشر فنادى"[النازعات:٢٣] لما أراد فرعون أن يُبَيِّن سُلطَته؛ جمع جنوده، فربنا سبحانه وتعالى يُبَيِّن من أول لحظة إلى أي مقدار تطيع الملائكة أمر الله عز وجل، لبيان قدرة الله المطلقة سبحانه وتعالى، كما سنرى في آيات خلق السماوات والأرض في السورة، سنلاحظ التركيز على مشهد معين.

تفتتح السورة بمشهد الملائكة، أول مشهد: "والنازعات غرقا"، النزع يُستعمل عندما تكون المادة ملتصقة بشدة وتؤخذ بصعوبة، هناك مقاومة في الشد، مثلًا عندما أقول: أخذْتُ القلم، غير: نزعْتُ القلم، نزعت القلم إذًا يوجد مقاومة وأنا أشد القلم، لذلك عندما يقول ربنا سبحانه وتعالى: "...يؤتي الملك من يشاء..."[ال عمران:٢٦]، قال: "...وينزع الملك..." [ال عمران:٢٦]، الذي يؤخذ منه الملك دائمًا لا يريد أن يتركه، لآخر لحظة وهو متشبث به، الله عز وجل بقدرته المطلقة سبحانه وتعالى ينزع منه الملك. كذلك الكافر والعياذ بالله من شدة التمسك بالدنيا، فهو غير قادر أن يتخيل أنه سيموت، وكما في قول ربنا في سورة القيامة عن الكافر: "وظن أنه الفراق"[القيامة:٢٨].كانت كل مشكلته في الدنيا أنه سيفارق الدنيا، كل مشكلته في الموت ليست هي: إلى أين سيذهب أو الدار الآخرة ماذا فيها؟! لا؛ هو يخاف من فراق النعيم "وحيل بينهم وبين ما يشتهون..."[سبأ:٥٤]، قيل: هذه لحظة الموت، يمد يده ليأخذ الدنيا ويأتي مَلَك الموت ليُبعِد كل الذي يحبه عنه ويقبض روحه..

"والنازعات" تظل روح الكافر ونفس الكافر والفاجر متمسكة بالدنيا متغلغلة في كل أطراف الجسد، فالملائكة تشد النفس من كل طرف، حتى قالوا: من تحت الأظافر! النفس تتشعب وتهرب، تذهب في كل عضو، وفي كل عصب، وفي كل مكان في الجسد، تتفرق تمامًا.. فالمَلَك من قوته التي أعطاها له ربنا، يشد نفس الكافر والكافر يقاوم، هذا هو النزع...

"غرقا" الإغراق هو بلوغ الغاية القصوى، عندما يقول لك شخص أنه استغرق في العمل فالمعنى: أنه بذل أقصى ما عنده في العمل، فالملائكة تأخذ بكل قوتها وتشد مقابل تنازع الكافر، ولكن بقدرة الله عز وجل تنزع الملائكة وتخرج روح الكافر، مشهد مؤلم في أول السورة، مشهد النزع.

نريد أن نأخذ اليوم في السورة مشهد النفس، سنتكلم اليوم عن مسألة النفس في أكثر من موضع في السورة، أول مشهد؛ مشهد النفس التي لم تُرَوَّض، النفس التي لا تريد أن تخرج، التي تريد أن تمارس كل أهوائها وشهواتها، لا تريد أن تخرج من الدنيا أبدًا، التي تشعر أن الآخرة سجن، وأن الدنيا جنة "والنازعات غرقا"..

المشهد الثاني مشهد عجيب، مشهد عكس المشهد الأول تمامًا: "والناشطات نشطًا" ما معنى الناشطات؟ كما يقال لك: هذا شخص نشيط، نشيط بمعنى خفيف ويتحرك بسرعة، الأنشوطة: الربطة التي تنفك بجهد بسيط جدًا، ربطة مثل 'الفيونكة' تشدها فتنفكك بسهولة، هذه هي الأنشوطة، عندما يكون الشخص مريضًا ثم يزول عنه هذا التعب، يقال لك كأنما أُنْشِط من عِقَال، بمعنى أنه كان مقيدًا وقام، إذًا الناشطات تُستَعمل عندما يكون الواحد مقيدًا ويُفَكُّ.. مثلًا الحيوان عندما تربطه، والحيوان يريد أن يتحرك في المرعى، ويريد أن ينطلق في المزرعة، فإذا جاء أحد ليَفُكُّهُ يقولون: هذا الحيوان أُنْشِط من عِقَال، كان مسجونًا وانفك، أو يكون الواحد مريضًا ويبرأ، هكذا المؤمن؛ الموت بالنسبة له كأنما كان مخنوقًا وكان مسجونًا وانطلق بالموت! لذلك حديث النبي صلى الله عليه وسلم: "الدنيا سجن المؤمن"[1]، إذًا هناك معنيان للناشطات: معنى أن المؤمن كان إحساسه أنه مسجون فى الدنيا، والثاني أنه كان متعبًا في الدنيا فاستراح، إذًا مشهد السجن والحبس والضيق والتعب الذى فى الدنيا، الآن سينطلق إلى نعيم الآخرة.

يقال أيضا: الدلو يَنشَطُ من البئر، أي أن المياه التي في البئر كمية قليلة، فدلو واحد يخرج كل الذي فيه.. معاني النَّشْطِ في اللغة جميلة جدًا.

لكن الشاهد إن خروج روح المؤمن كخروج القطرة من فِيّ السقاء، ماذا يعني؟ عندما تقلب زجاجة المياه تريد أن تخرج كل المياه التى فيها، بمجرد قلب الزجاجة يخرج الماء، لا تظل تقول له: اخرج، ولا تضرب الزجاجة لتُخرِج المياه.. أبدًا، الماء بمجرد قلب الزجاجة يخرج، كذلك روح المؤمن بمجرد أن يقول المَلَك لها: اخرجي إلى ربك، تجد نفس المؤمن خرجت، لأنها نفس مهذبة ، لأنها نفس تَرَبَّت، نفس مُرَوَّضة، وكما سيأتي معنا فى السورة: "وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى"[النازعات: ٤٠].

[1]-[عن عبدالله بن عمر:] يا أبا ذرٍّ! إنَّ الدُّنيا سِجنُ المؤمنِ، والقَبرُ أمنُهُ، والجنَّةَ مصيرُه، يا أبا ذرٍّ ! إنَّ الدُّنيا جنَّةُ الكافرِ، والقبرَ عذابُه، والنارَ مصيرُه، يا أبا ذرٍّ إنَّ المؤمنَ لم يجزَعْ من ذُلِّ الدُّنيا، ولَم يَئِلْ من أَهلِها وعزِّها
أبو نعيم (٤٣٠ هـ)، حلية الأولياء ٣٨٩/٦ • غريب من حديث مالك

"وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا" الملائكة تُخرِج روح المؤمن لكن بكل سهولة و بكل يسر؛ لأن المؤمن كان مرتبطًا بالآخرة، لأن المؤمن كان يشعر أن الدنيا سجن، المؤمن كان يتمنى اللحظة التي سيلقى فيها الله عز وجل، لأن المؤمن كان يحلم باللحظة التي سيرى فيها وجه الله عز وجل، فهو يحيا مريضًا في الدنيا حتى لو كان في نعيم، حتى لو كان معه مال، حتى لو كان معه سيارات، لكنه يحس أنه منتظر شيئًا عظيمًا في الآخرة، منتظرٌ صحبة النبي صلى الله عليه وسلم، فدائما كلما تذكر رؤية وجه الله، أو كلما تذكر نعيم الجنة، يُحِس أنه مسجون ويحس أنه متعب، فيأتي النَّشْط ليجعل المريض يبرأ، والمحبوس ينطلق هذه هي "وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا".

المشهد الثالث: الملائكة بعدما خرجت بروح المؤمن تسبح في السماء، تصعد بروح المؤمن إلى الله عز وجل فتسبح، أو السابحات هي الملائكة التي تسبح لتنفِّذ أمر الله.

إذًا تأتي مشاهد السورة... بدأت بمشهد الموت، نلاحظ في سورة النبأ تكلمنا عن الجحيم وتكلمنا عن الجنة والدار الآخرة، لكن الموت أكثر تأثيرًا في الإنسان من الدار الآخرة؛ لأن هذا هو الذي يراه، فبدأت في سورة النازعات الخطاب أصبح أعلى، الخطاب أشد، الكلام عن الموت، لكن الكلام عن الموت في لحظة خروج الروح، لحظة خروج النفس، في هذه المرحلة نجد أن السورة تتكلم عن خمسة أنواع من الملائكة : النازعات – الناشطات – السابحات – السابقات – المدبرات.

يوجد خلاف بين المفسرين طويل جدًا، لا نريد أن ندخل فيه، الشاهد أن هناك مفسرين قالوا إن أول نوعين هما الخاصيْن بالموت (النزع والنشط)، هذه الملائكة التي تنزع أرواح الكفار، وهذه الملائكة التي تخرج أرواح المؤمنين بكل سهولة ويسر، وقالوا إن الأنواع الثلاثة الأخرى هم أنواع من الملائكة المختلفة التي تنفذ أي أمر من أوامر الله عز وجل، وإن الملائكة في أي أمر تمر بثلاث مراحل: تسبح: تنطلق، ثم تتسابق من ينفذ الأمر، ثم تدبر الأمر الذي طلبه الله عز وجل منها. بمعنى أن الله عز وجل يأمر الملائكة بأمر فتسبح الملائكة وتنطلق، ثم تتسابق، ثم تدبر هذا الأمر، ولذلك جاءت هذه الثلاثة معطوفة على بعضها بالفاء...

"والسابحات" / "فالسابقات" / "فالمدبرات" وجاءت الأولى بالواو "والنازعات" / "والناشطات"

فقالوا هذه الثلاثة شيء وتلك شيء آخر، إذًا هناك معنى أن هذه الملائكة تنزع أرواح الكفار "وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا"، "والناشطات نشطا" الملائكة تُخرِج أرواح المؤمنين بسهولة ويُسر.

رقم ثلاثة: "والسَّابحات": الملائكة التي أمرها الله –عز وجل– أمرها بأمر فتسبَح، أيًا كان هذا الأمر. لذلك ربنا قال: "فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا"[النازعات:٥] نكرة، أي أمر؛ أمر المطر، أمر الإهلاك، أمر إنقاذ

مظلوم، أمر إهلاك ظالم، أي أمر، يخفض ويرفع سبحانه وتعالى، فالملائكة تنفذ أمر الله "...لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ"[التحريم:٦].

هذا الأمر، ما هي طريقة تنفيذه؟ ربنا –سبحانه وتعالى– يقول أنتم أيها العصاة، يا من لا تريدون أن تطيعوا، يا من ترفضون أن تخضعوا لله، يا من ترفضون أن تخشعوا لله، ربنا يقول إن هناك مخلوقات: "وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ" [الأنبياء:١٩]، ليس فقط أنهم لا يتعبون، بل ولا يطلبون التعب "وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ"، "يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ"[الأنبياء:٢٠] هذه في سورة الأنبياء ، وفي سورة فصلت: "...يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ"[فصلت:٣٨] لا يمل، ولا يتعب، ولا يفتُر، ولا يستحسِر، هذه عبادات الملائكة.

فالملائكة تنفيذها لأمر الله يمر بثلاث مراحل: السَّبح ثم السَّبق ثم التنفيذ؛ لذلك المؤمن يجب أن يكون هكذا، حين يُطلب منه طلب يسبح ثم يتسابق مع غيره من المؤمنين ثم ينفذ الأمر بتدبير وليس أي تنفيذ "فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا".

السَّبْح هو السير دون موانع وعراقيل، السَّابح في الماء هذا الذي يمشي في الماء يحرك يديه ورجليه من غير موانع، هناك سلاسة في الانطلاق... مرحلة (السبح) لما يصبح متمكِّنًا فيها، ثم تأتي مرحلة (السبق) يستطيع أن يسابق غيره، ثم تأتي مرحلة (تدبير الأمر).

المؤمن مع أمر الله

إذًا لو استنبطنا من هذه الآيات ماذا يفعل المؤمن حينما يؤمر بأمر الله عز وجل؟ بعض المفسرين –وإن كان هذا فيه بعض الإشارات في الآيات بعيدًا عن التفسير الذي ذكرناه– قالوا: إن المؤمن يمر بمراحل:

المرحلة الأولى: أن ينازع نفسه في تطبيق الأمر، هذه أول النازعات.

المرحلة الثانية: طالما أنه نازع نفسه يبدأ ينشط.

المرحلة الثالثة: أنه يبدأ يَسْبح لتنفيذ أوامر الله عز وجل.

المرحلة الرابعة: أنه يتسابق مع غيره من المؤمنين.

المرحلة الخامسة: تنفيذ أمر الله عز وجل، ثم يبحث عن أمر آخر يمر بهذه بالمراحل.

أو قالوا: لا؛ "وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا" الملائكة تأخذ أرواح المؤمنين وتسبح بها في السماء، وتتسابق الملائكة بأرواح المؤمنين على قدر أعمالهم، الله أكبر! مشهد صعود الملائكة بأرواح المؤمنين، السَّبْق في الوصول إلى الله على قدر الأعمال: "وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ"[الواقعة:١٠-١١].

وبعد أن يعملوا هذا يسبحون ويسبقون ويدبِّرون أمرًا آخر، يَرون واحدًا آخر يذهبون ليقبضوا روحه. يا ترى هل سيكون من نصيب النازعات أو من الناشطات؟ نسأل الله جميعًا أن نكون من أرواح المؤمنين التي تخرج بسهولة ويسر، ونسأل الله حسن الخاتمة.

الشاهد مشهد قدرة الله المطلقة على الكون، جنود الله -سبحانه وتعالى- له جنود السماوات والأرض منتشرون في كل مكان؛ ملائكة تنزع أرواح كفار، ملائكة تُخرج أرواح المؤمنين بسهولة، ملائكة تسبح في السماء، ملائكة تتسابق، ملائكة تدبر الأمر، مشهد هيمنة على الكون كله، مشهد طاعة مطلقة، مشهد خضوع مطلق من الملائكة.

تفتح السورة تفاجأ بهذا المشهد، مقابله مشهد فرعون اللئيم المعاند المتكبر يقول: "أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى"[النازعات:٢٤]، فرح بجنوده من حوله، "فَحَشَرَ فَنَادَى""[النازعات:23] يجمع الجنود حوله لكي يقول: "أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى"، مشهد هزلي! لما ترى المشهد الأول مقابلًا لمشهد الملائكة، ترى كم أن الإنسان حقير، كم أن الإنسان ضعيف... فعلًا، إنه يُخلق من نطفة فإذا هو -وإذا هنا الفجائية- بعدما كان نطفة فإذا هو فجأة خصيمٌ مبين! يخاصم ربنا سبحانه وتعالى، ويُباين في الخصم، ويحاول أن يتفلسف في الخصومة والعياذ بالله.

﴿وَالنّازِعاتِ غَرقًا ۝ وَالنّاشِطاتِ نَشطًا ۝ وَالسّابِحاتِ سَبحًا ۝ فَالسّابِقاتِ سَبقًا ۝ فَالمُدَبِّراتِ أَمرًا﴾

[النازعات: ١-٥] هذا المشهد الأول في السورة.

يوم ترجف الراجفة

بعد انتهاء مشهد الموت وتحرك الملائكة، بعد ذلك المشهد فجأة "يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ"سورة النازعات:٦، ما الذي سيحصل يوم ترجف الراجفة؟ العلماء وقفوا عند كلمة "يَوْمَ" وقالوا ما هو الذي سيحصل يوم ترجف الراجفة؟ فقالوا هذا بعد الموت، وأن الله -عز وجل- أقسم بالملائكة "وَالنَّازِعَاتِ.."، "وَالنَّاشِطَاتِ.."، "وَالسَّابِحَاتِ.." لتُبعثُنَّ في يومٍ ترجف فيه الراجفة!

أو "يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ"[النازعات:٦] اذكر يا محمد للناس هذا اليوم، هذا اليوم لا ينبغي أن يغيب عن حياتنا، هناك من يقول لك: هناك يوم أنا لا أنساه أبدًا، سواء جميل أو سيِّئ، يوم أن رُزق ولدًا بعد فترة طويلة من العقم مثلًا، يوم أن نجح بعد فترة طويلة من التعب، يوم أن رُزق مالًا بعد فترة طويلة من الفقر.. مثلًا كعب بن مالك لما تخلّف عن غزوة تبوك والنبي صلى الله عليه وسلم قال له: "أبشر بخير

يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك"[٢]، خير يوم كان يوم توبة كعب بن مالك ونزول القرآن فيه، هذا اليوم لا يُنسى عند كعب.

فربنا يقول لنا: هناك يوم يجب ألَّا تنسوه، ما هو هذا اليوم يارب؟ "يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ"[النازعات:٦-٧].

سنلاحظ أمرًا عجيبًا جدًا في سورة النازعات؛ وهو الإبهام فيها، العلماء مختلفون فيها ما هي النازعات؟ وما هي الناشطات؟ وما هي السابحات؟ وما هي الراجفة؟ وما هي الرادفة؟ والطامة الكبرى؟ أسماء فيها نوع من الإبهام، هذا الإبهام يخيف، جاء بالأوصاف، أمر سيجعل قلبك يرجف، ما هو؟ صيحة عظيمة؟ النفخة الأولى؟ العلماء اختلفوا هل الراجفة هذه هي النفخة الأولى؟ أم الراجفة هي الأرض ستتحرك من تحت الناس؟

أيًا كان، فالمشهد مرعب، هناك شيء سيرجف سواء كانت الأرض ستهتز، أو نفخة أو صيحة تجعل الناس كلهم يموتون، "يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ"..

فالذي قال: إن الراجفة هي الأرض، قال: إن الرادفة هي السماء، والذي قال: إن الراجفة هي النفخة الأولى، قال: إن الرادفة هي النفخة الثانية.

الذي قال: إن الراجفة هي النفخة الأولى، وهذا هو الأشهر، وبعضهم روى حديثًا وإن كان بعضهم ضعَّفه عن النبي صلى الله عليه وسلم، والذي قال: إن الراجفة النفخة الأولى وإن الرادفة النفخة الثانية[٣].

والذي قال: "يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ" مع آية "يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ..."[سورة المزمل:١٤]. فقالوا طالما الرجف نُسِب إلى الأرض في القرآن فمن تفسير القرآن بالقرآن أن الراجفة هي الأرض تهتز من تحتهم.. أيًا كان، الرَّجْف فيه اهتزاز وصيحة عظيمة كل الناس تموت، "تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ" كل الناس تستيقظ.

ما هذه الهيمنة؟! قوة مطلقة، أرواح تُنزع، وملائكة تسبح، وملائكة تتسابق، وملائكة تدبِّر، وأرض تهتز، ونفخة تُميت الناس، ثم نفخة أخرى تُحيي الناس مرة أخرى، هيمنة وقدرة مطلقة من الله سبحانه وتعالى.

---

[٢]- البخاري (٢٥٦ هـ)، صحيح البخاري ٤٤١٨ • [صحيح]

[٣]-[عن علي بن أبي طلحة]:عن ابنِ عباسٍ: وقولُه يَوْمَ تَرْجُفُ الرّاجِفَةُ النفخةُ الأولى تَتْبَعُها الرّادِفَةُ النفخةُ الثانيةُ

ابن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ)، فتح الباري لابن حجر ٥٥٩/٨ •وصله الطبري

"تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ..."سورة النازعات[7-8] في هذا اليوم الذي أنتم تُعرِضون عنه، "قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ" في هذا اليوم الذي تستهزئون به، في هذا اليوم الذي لا تفكرون فيه، "قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ"سورة النازعات:٨؛ الوَجْف: شدة الخوف والرعب، في قوله سبحانه وتعالى: "...فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ..."[سورة الحشر:٦]، الفيء الغنيمة حين تأتي من غير تعب، فربنا قال في سورة الحشر: "فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ"؛ أوجف على الخيل: حين يركب أحد على الخيل والإبل ويريد من الخيل أن تجري بسرعة فيضربها بشدة، فالخيل قلبها يدق بسرعة وتضطرب من الضرب فتجري بسرعة، والإبل يحصل لها هذا أيضًا تضطرب من شدة الضرب فتجري بسرعة، فكذلك ربنا يقول: "قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ"؛ فيها اضطراب وفيها إسراع، لا يدري أين يذهب، وقلبه مضطرب وجسده كله مضطرب، هذا هو الوَجْف. فربنا يقول: القلب واجف، خائف مضطرب، لا يدري أين يذهب، "قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ"..

"أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ"[سورة النازعات:٩]. العجيب هُنا أنَّ ربنا لم يقل: أبصارهم، بل قال: أبصارها؛ أي أبصار القلوب، يعني الجسد كله خاشع، لما يكون القلب مضطربًا فالجسد كله يضطرب، فربنا يقول: أبصار القلوب خاشعة، يعني الجسد كله خاشع، لا يستطيع أن يفكر، ءالآن تخشع؟!!!

ربنا هنا في السورة يقول له: "وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى"[النازعات:١٩]، فرفض! يقول لقريش: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى"[النازعات:٢٦].فرفضوا، فربنا يقول له في نهاية السورة: "إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا" [النازعات:٤٥]، فالذي يرفض أن يخشى في الدنيا:

١) "وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى".

٢) "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى".

٣) "إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا".

ربنا قال: الذي رفض كل هذا: "أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ" سيخشع في الآخرة!

استهزاء الكفار وتخويف القرآن لهم

انتهى مشهد البعث، فجأة رجوع للدنيا. والسُّورة مشاهد؛ مشهد الموت، مشهد الراجفة، مشهد الرادفة، ثم انتهت المشاهد ورجعنا للدنيا، كفار يجلسون مع بعض في مجلس شبيه بالمجلس الذي في سورة النبأ الذي كانوا يستهزئون فيه، هنا مشهد ثانٍ: "يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ"[النازعات:10]هذا يقولونه في الدنيا وهم جالسون مع بعضهم البعض، ربنا يأتي بمشهد بعدما خوَّفهم بالآخرة أرجَعهم مرة أخرى، دائمًا القرآن يأتي بمشهد في الدنيا ثم يأخذ الذين في الدنيا ويذهب بهم إلى الآخرة، ويتكلم عن

الآخرة بصيغة الماضي، وبعدما يُخوِّفهم يُرجِعهم إلى الدنيا مرة أخرى، ويقول لهم: هل ستتوبون أم لا؟ ففعلًا كلام ربنا –سبحانه وتعالى– معجِز.

فربنا يقول: الكفار جالسون مع بعض في الدنيا بصيغة المضارع لأنهم كرَّروا هذا الكلام، ودائمًا في الهجمات الإعلامية الشرسة يأتون بمعنى واحد ويكررونه كثيرًا، فالمعنى الذي كانوا يكررونه بصيغة المضارع، سؤال استنكاري يقولون: "أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ"؟!

سنعود مرة أخرى إلى الأرض؟ سنعود مرة أخرى؟ بعدما ننزل تحت الأرض سنعود إلى الحالة الأولى التي كنا عليها؟ الحافرة يعني الحالة الأولى التي كنا عليها، معقول؟ وقالوا في الاستفهام الذي بعده: "أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً"[النازعات:11]؟

وانتبه هنا أضافوا كلمة، كانوا دائمًا يقولون: عِظَامًا وَترابًا، هنا قالوا: "أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً"، كأن القرآن يصوّر لك هم ماذا يعملون، كأنهم أحضروا عظمًا وأخذوا ينفخون فيه لأن النَّخِرة مجوَّفة أو مفتَّتة، يحضرون عظمة ويفتتونها وينفخون فيها ويقولون للناس: انظروا، الرسول المبعوث إليكم يدَّعي أنكم بعدما تصبحون هكذا سترجعون أحياء مرة أخرى! انظر الاستعمال الإعلامي لتضليل الناس! ويكررون هذا المعنى: "يقولون" يعني كل فترة يخرج برنامج ويأتي ببعض العظام النخرة أمام الناس، ويقول: انظروا، يريدون أن يقولوا: تخيلوا أن هؤلاء العقلاء يدَّعون أنهم على عقل، ويقولون أننا سنرجع أحياء مرة أخرى بعدما كنا عظامًا! ليس فقط عظامًا، بل عظامًا نخرة! ضغط على الناس حتى ينكروا البعث، دائمًا عندهم إشكالية مع قضية البعث!

"أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً" يقولون ذلك ويمزحون مع بعضهم البعض، يقولون ذلك سخريةً واستهزاءً.. فيقول أحدهم "...تلك إذًا كرة خاسرة"[النازعات:12] على سبيل السخرية!!
كمَن يقول على سبيل السخرية: نحن إذا دخلنا الجنة لن نجد فيها مَن نَعرِفُه ويعرِفُنا؛ يتحدث عن الدار الآخرة باستهزاء.

فهُم جالسون مع بعضهم البعض يقولون: هل يُعقَل أن نعود مرة أخرى بعد أن كنا عظامًا؟ هذا الأمر إذا حدث سنهلك هلاكًا شديدًا؛ لأنهم لا يفعلون أي طاعة.. إذا حدث ذلك "قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ"[النازعات:12] سوف نخسر، وهذا الكلام حقيقي فهم حقيقة سيخسرون، لكنهم يقولونه باستهزاء.

وهنا لطيفة جميلة؛ عندما أرادوا أن يضغطوا على الناس نفسيًا جاءت بصيغة "يقولون" تكرار، "يقولون أءنا لمردودون في الحافرة"، لكن عندما قالوا إن هناك احتمال –حتى وإن كان على سبيل السخرية و

الاستهزاء- احتمال أن يكون هذا الكلام صحيحًا، وإن كان صحيحًا سنخسر، جاءت بصيغة الماضي: "قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ"

إذًا الإعلام يعلم جيدًا ما يكرره وما لا يكرره، يعلمون إذا أرادوا توجيه العقول نحو قضيةٍ ما؛ ما يجب تكراره وما لا يجب.. لأنهم إذا كرروا أنه إذا كان هناك بعث سنخسر -حتى وإن كان على سبيل المزاح والاستهزاء- قد يأتي أحد من يسمعهم ويفكر في الأمر ويضع هذا الاحتمال في اعتباره.

إذًا؛ دائمًا الهجمات الإعلامية تعلم ما يجب تكراره وما لا يجب؛ ما الذي يأتي بصيغة "يقولون" وما الذي يأتي بصيغة "قَالُوا"، "قَالُوا تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ"

فيقول الله تعالى لهم؛ الذي تستبعدونه -أن يكون الإنسان عظام نخرة ثم يعيده الله- هذا يحدث بزجرة واحدة، بنفخة واحدة.. الزجرة؛ كأنك تزجر شخصًا، تُحرِّكه ليقوم، هذا يحدث بنفخة واحدة، ليست ثانية ولا ثالثة، "فإنما هي زجرة واحدة"[النازعات:13]، "فإذا" -الفجائية- "فإذا هم" أي هم أنفسُهم الذين كانوا نخرة "فإذا هم" -هؤلاء المستنكرون- "بالساهرة"؛ اسم غريب جدًا أن يُقال على أرض المحشر، "الساهرة"، لماذا هذا الاسم؟

قالوا: لأن هذه الأرض ليس عليها نوم، ليس ذلك فقط، وإنما بعضهم قال ليس فيها ملجأ.

فقالوا: ما علاقة أن ليس فيها ملجأ تختبئ فيه، بالنوم؟

كما قال تعالى: "لاترى فيها عوجا ولا أمتا"[طه:107] لأن الإنسان دائمًا لا يستطيع النوم في المكان المفتوح، يخاف؛ يريد مكانًا ينام فيه. فبما أنه ليس هناك مكان يلجأ إليه إذًا لن ينام.. فمن لحظة البعث سينتهي النوم، مَن سيدخل الجنة ومَن سيدخل النار، ليس هناك نوم.

من هذه اللحظة انتهى النوم إما نعيم دائم فلا يحتاج لنوم لأن النوم يُنغص عليه نعيمه، أو -عياذًا بالله- عذاب دائم فالنوم في حقه راحة، فهو ممنوع من النوم.

وقد ذكرنا في سورة النبأ أن أحد معاني "لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا"[النبأ:٢٤] بعض العلماء قال البرد هو النوم لأنه يُبرِّد عنهم قليلًا من العذاب، فهم محرومون من النوم "فإذا هم بالساهرة"[النازعات:14]

بعد ذلك مشهد آخر؛ مشهد لمتكبر مثل المتكبرين في قريش -مثل أبو جهل- رفض الطاعة ورفض الخضوع؛ فالله -سبحانه وتعالى- يُعَرِّض بقريش فيقول لهم؛ هناك نموذج رفض مثلكم، فماذا حدث له؟

حديث سيدنا موسى وإرساله إلى فرعون

يقول الله –عز وجل– للنبي صلى الله عليه وسلم: "هل أتاك حديث موسى* إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى"[النازعات:١٥-١٦] الله –عز وجل– ينادي عبدًا من عباده؛ تُرى لماذا؟ ليذهب إلى طاغية ينصحه في الله. الله –عز وجل– من فوق سبع سماوات ينادي موسى –عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم– "إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى" يقول له: "اذهب إلى فرعون"[النازعات:١٧] الله أكبر! انظر إلى رحمة الله تعالى حتى بالطغاة! الله عز وجل قبل أن يأخذ فرعون، قبل أن ينتقم منه، يقول لسيدنا موسى اذهب إليه وأنذره، ربما ينتهي و يرجع "...لعله يذكر أو يخشى"[طه:٤٤]، و في سورة طه "فقولا له قولًا لينًا..."[طه:44]الله أكبر! الله –عز وجل– ينادي بشرًا من البشر، موسى –عليه السلام– ولأي شيء؟ ليذهب إلى طاغية ويدعوه "اذهب إلى فرعون..."[النازعات:١٧] لماذا يا رب؟ "...إنه طغى" [النازعات:١٧]فيها معنيان؛ الأول: معنى الرحمة، أن الله –عز وجل– لا يريد أن يأخذ فرعون بغتة دون أن يرسل له رسولًا، والمعنى الآخر: أن هذا واجب الدعاة أن يوجِّهوا رسائل للطغاة، أي طاغية لا بد أن يواجَه لا بد أن تصل له الرسالة. "سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى سلطان جائر فنصحه فقتله". لا بد أن تصل الكلمة للظالمين "اذهب إلى فرعون إنه طغى"[النازعات:١٧]، لا بد أن تبلغه هذه الكلمة.."طغى" أي تجاوز الحد؛ رأى نفسه أكبر من حجمه، رغم أن أول مشهد في السورة، مشهد رجل تُنزع منه روحه ولا يملك حيلة ليدفع عن نفسه، نفسه متفرقة في الجسد، و تُنزع منه غصبًا لا يملك حتى نفسه، لا يملك حتى روحه، وهذا "طغى" أي رأى نفسه أكبر من حجمه.. طغى الماء أي تجاوز الحد و بدأ يغطي الدنيا كلها، فالله –سبحانه– يقول لموسى عليه السلام: "اذهب إلى فرعون" اذهب إليه، لا بد أن تصل الدعوة إليه ولا تكون عن بُعد، "اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى" إنَّ التعليلية، وكأن الله يقول له اذهب إليه قبل أن آخذه أخذ عزيزٍ منتقم، اذهب إليه وخاطِبْه بلين فربما يتوب، "إِنَّهُ طَغَى"، وقد أخبر الله تعالى سيدنا موسى –عليه السلام– بما يقولُه لفرعون: "فَقُلْ" أمره الله تعالى أن يقول له بصيغة الاستفهام التي تُلِينُ قلبه: "هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى ¤ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى"؛ "هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى" لا تقل له يا فرعون أنت فيك وفيك ويجب عليك، وإنما خاطبه بصيغة الاستفهام؛ كأنه يقول له إني سأعرض عليك عرضًا، ما هو؟ "...هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى ¤ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى" [النازعات:١٨-١٩]

المؤمن عندما يسمع هذا العرض يذوب شوقًا أن يجد مَن يَدُلُّه على الله، كل الناس –أعني أهل الإيمان– يتمنون مَن يأخذ بأيديهم إلى الله، يتمنون مَن يقول لهم ما يقرِّبهم إلى الله، تخيل كليم الله يذهب لفرعون ليقول له: لقد أتيت إليك بهذه الفرصة عندك، لقد أتيت إليك لأحدثك عن الله وأساعدك أن تصل إليه.

لذلك فإن الكلام الذي قاله سيدنا موسى لفرعون؛ سيدنا موسى طبقه على نفسه، فعندما سُئل عليه السلام: وهل في الأرض أعلم منك، قال: لا

فعاتبه الله -عز وجل- أن لم يرد العلم إليه، وقال: بلى عبدى فلان هو أعلم منك؛ في جزئية معينة، فقال: أي ربي وكيف لي به؟ طالما أنه سيقربني منك أذهب إليه يارب، و كيف لي به؟
قصة موسى والخضر في سورة الكهف.

فهنا يقول له: ﴿هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى﴾ نجد كلمة (تَزَكَّى) و(تَخْشَى)، هاتان الكلمتان ستتكرران -إن شاء الله- في سورة عبس؛ النبي -صلى الله عليه وسلم- في أول سورة عبس منشغل بناس كي يتزكوا وبعد أن يتزكى يخشى، دائمًا الخشية تأتي بعد التزكية.. فيقول الله تعالى للنبي -عليه الصلاة والسلام- أنت منشغل بناس يرفضون التزكية -التي هي المرحلة الأولى- وهناك رجل جاء إليك و هو أصلًا تجاوز مرحلة التزكية إلى مرحلة الخشية: ﴿وأما من جاءك يسعى ¤ وَهُوَ يَخْشَى﴾ [عبس:٨-٩] إذًا ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى﴾..[عبس:٧] فكأن مرحلة التزكية هي المرحلة الأولى ثم مرحلة الخشية هي المرحلة التالية.

حسنًا، ما العلاقة بين كلمة -وتأمل إعجاز القرآن- العلاقة بين كلمة ﴿طَغَى﴾ وكلمة (تَزَكَّى)؟ سنجد أن ﴿طَغَى﴾ فيها زيادة و﴿تَزَكَّى﴾ أيضا فيها زيادة، لكن ﴿طَغَى﴾ زيادة تجاوزت الحد، إنما الزكاة هي نماء مع طهارة.

لذلك يقولون إن الزكاة التي تُؤديها تقوم بأمرين؛ تُطهِّر مالك وفي ذات الوقت تبارك لك في مالك فيزيد؛ كيف؟ وظاهر المال أنه قل! لكن البركة زادت.

فالزكاة في اللغة لها معنيان متلازمان؛ النماء -شيء ينمو- والتنقية -شيء يصبح طاهرًا نقيًّا- فكأنه يقول لفرعون أنت تبحث عن الزيادة؟ زيادتك هذه زيادة طغيان، أنت تطغى؛ تتجاوز الحد، من الممكن أن أساعدك لتُشبع حب الزيادة الذي بداخلك، لكن بشيء يحبه الله، وتظل نفسك تزداد وتنمو لكن بالطريقة التي يحبها الله، هذه هي ﴿هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى﴾.

إذًا الزكاة فيها زيادة والطغيان زيادة لكن الطغيان زيادة تجاوَزَتْ الحد، والزكاة النفس هنا تزداد لكن مع طهارة، النفس ستتنقى من الخبائث.

إذًا ﴿هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى﴾ يقول له: لقد بعثني الله بآيات تستطيع أن تُطهِّر النفس الخبيثة. ويجب أن نركز على النفس في السورة: نزع النفس في أول السورة، وتزكية النفس في منتصف السورة، وآخر السورة نهى النفس عن الهوى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ [النازعات:٤٠]

إذًا من المعاني التي تعالجها السورة قضية النفس، قلنا إن الزكاة فيها معنيان –الزيادة و الطهارة– ،فيقول له: نفسك ستزداد، وستزداد قربًا من الله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ...﴾[الإسراء:٥٧] الملائكة تتسابق أيهم أقرب، الصالحون يتسابقون أيهم أقرب إلى الله، هذا هو النماء الحقيقي، فلا تظل تطغى حتى تقول أنا ربكم، لا، و لكن تظل تزداد حتى تصبح أقرب إلى الله، عندما تكون أكثر خشوعًا، فأنت هكذا أعلى، أنت تقترب من الفردوس.

﴿هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى﴾ إذًا ﴿تَزَكَّى﴾ فيها جزء من معانى ﴿طَغَى﴾ لكن بانضباط، أنها تتطهر، فالنفس –كل نفس– فيها مشاكل، أي نفس بشرية: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾[النازعات:٧-١٠]

النبي عليه الصلاة والسلام قال: "اللهم آت نفسي تقواها وزكِّها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها"[٤] النفس لن تتزكى إلا بآياتٍ من الله، كما في قصة سيدنا موسى، الذي ذهب ومعه آية إلى فرعون يزكيه بها ﴿...يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ...﴾[الجمعة:٢]

النفس لن تتزكى أي لن تتخلص من الخبائث وتنمو وتقترب من الله، هذان المعنيان لن يحدثا إلا بالقرآن.

إذًا أنت تبحث عن التزكية، والتزكية معنيان:

الأول: تريد أن تتخلص من مشاكل في نفسك.

والثاني: تريد لنفسك أن ترتقي في الوصول إلى الله.

[٤]-[عن زيد بن أرقم:] لا أَقُولُ لَكُمْ إِلّا كما كانَ رَسولُ اللهِ ﷺ يقولُ: كانَ يقولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ، والْكَسَلِ، والْجُبْنِ، والْبُخْلِ، والْهَرَمِ، وَعَذابِ، القَبْرِ اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْواها، وَزَكِّها أَنْتَ خَيْرُ مَن زَكّاها، أَنْتَ وَلِيُّها وَمَوْلاها، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِن عِلْمٍ لا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لا يُسْتَجابُ لَها.
مسلم (٢٦١ هـ)، صحيح مسلم ٢٧٢٢ • [صحيح] •

لن يحدث هذا إلا من عند الله؛ لأن الله هو الذى خلق النفس وهو يعلم كيف تترقى هذه النفس: ﴿هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى ۝ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فتخشى) المعرفة الحقيقة لله تؤدي إلى الخشية.

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ...﴾ [سورة الحشر:٢١] الذي يُعَرِّفُكُم بالله﴿...عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ...﴾ [سورة الحشر:٢١] الجبل ﴿...خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا...﴾ [سورة الحشر:٢١] من ماذا؟ من الانبهار اللغوي بالقرآن؟ أم من الانبهار الفكري بالقرآن؟

لا.. بل: "لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ "!

التأثير الحقيقي لآيات الله هو الخشية، فالذي يقرأ القرآن ولا يزداد به خشية لم يستفد شيئًا، لم يستفد الاستفادة الحقيقية من القرآن، التقييم الحقيقي للاستفادة من آيات الله هي زيادة الخشية.

فموسى عليه السلام يقول لفرعون: أولًا سيحدث لك تزكية، فنفسك الخبيثة هذه المستأسِدة الطاغية عليك تحتاج أن تتهذب قليلًا، ثم بعد هذا التهذيب، أطرح عليك آيات الله. بعدما نُخَلِّي ونُنَقِّي النفس، نُخَلِّي النفس، أي نضع فيها الأشياء الجميلة، فتخشى الله عز وجل: "وأهديك إلى ربك فتخشى".. ولن يتركه هكذا، مباشرة: "فأراه الآية الكبرى"[سورة النازعات:٢٠]، لم يقل الله هنا ما هي الآية الكبرى، لكن جمهور المفسرين على أنها العصا، على أية حال لماذا قال هنا "الآية الكبرى"؟ وانتبه للفرق بين "الآية الكبرى" و"...الطامة الكبرى"[سورة النازعات:٣٤] التي سوف تأتي معنا، "فإذا جاءت الطامة الكبرى"[سورة النازعات:٣٤] وما العلاقة؟ الآية الكبرى: التي لا آية بعدها، بمعنى: الآية التي تغطي على عقل الإنسان وتضغط عليه تجعله لا محالة إما أن يؤمن أو يجحد.

لا نقول إنه لا يقتنع، دائما نكرر هذا المعنى، آيات الله تضغط نفسيًّا على الإنسان لو استمع إليها وأنصت إليها وتدبرها وحاول أن يفهمها تضغط عليه نفسيًّا، فإما أن يؤمن وإما أن يجحد (أي أنه يكون عالمًا بأنه حق ولكن يرفضه)، وبما أن الإنسان في الدنيا مُخير بأن يختار طريق الإيمان أو طريق الكفر، فالآية الكبرى هنا عندما عُرضت عليه كان مُخيراً إما أن يقبلها أو يجحدها، أي يكون عالمًا بأنها حق ثم مع ذلك يرفضها.

أما "الطامة الكبرى" -أي الطامة التي لا طامة فوقها- ستغطي على عقله كما غطت الآية على عقله.

الآية الكبرى: الآية التي ستغطي على عقله ستجعله يوقن بأن هذه الآية من عند الله والآية الكبرى هي القرآن، لو تدبرها الإنسان لأيقن أنها من عند الله، ثم إما أن يؤمن وإما أن يجحد.

الطامة الكبرى: تغطي على عقله أيضا، لكنه لن يستطيع أن يفر منها لأن التخيير هنا رُفِع، فإما أن يقاد إلى النار أو يرحمه الله عز وجل فيذهب إلى الجنة.

"فأراه الآية الكبرى" ماذا كان رد فعل فرعون؟ يقول له: "هل لك إلى أن تزكى" وفرصة الهداية وفرصة الخشية ورؤية الآية الكبرى، ننتبه ماذا فعل؟! "فكذب وعصى* ثم أدبر يسعى"[النازعات:٢١-٢٢]، الفاء معناها أنه لم يعطِ نفسه وقتًا للتفكير، لم يقل: أنا بشر، ليس عندي ما أملكه، أنا أعرف حقيقة نفسي، لا.. لم يعطِ نفسه فرصة للتفكير، لم يفكر كيف انقلبت هذه العصا إلى حية وهو يعلم أن هذا ليس سحرًا، والسحرة قالوا له إن هذا ليس سحرًا، لكنه لم يعطِ نفسه فرصة للتفكير" فكذب وعصى".. لم يكتف بالتكذيب، "وعصى" أي بدأ يقاوم ويعارض، لم يُكذِّب بالآيات فقط ولكنه حارب دين الله عز وجل.

"فكذب وعصى" "ثم" هذا يُسمى التراخي الرُّتَبِي، أي بدأ يزداد في المعصية والطغيان.. "كذَّب" هذه مرحلة من الكفر، ولكن "عصى" أي بدأ يقاوم، وهذه درجة أعلى..

"ثم أدبر يسعى" هنا انتقل إلى درجة أعلى من الكفر وهذه ما تُسمى بدركات الكفر، "أدبر يسعى" أي بدأ يفكر ماذا سيفعل، وكلمة أدبر دائماً تُطلق على من يُوَلِّي مدبرًا في الحرب، أي انطلق دون تفكير وكأنها عكس" دَبَّرَ "أي أخذ يفكر ويخطط.. "أدبر" بعض العلماء قال إن الألف هذه اسمها ألف الإزالة، أى أزال التفكير، تمامًا كشخص يجرى بلا وجهة ولا يعرف أين هو ذاهب.. وهنا لطيفة عجيبة في كلمة "يسعى"، ليست أدبر يمشي، ولا أدبر يجري، وإنما أدبر يسعى، كأن فرعون ملهوف وخائف على ملكه من أن يضيع، فلما جاءت رسالة سيدنا موسى عليه السلام، وأراه الآية الكبرى، وبدأ الناس يقتنعون أو اقتربوا، خاف فرعون على ملكه الذى مكث سنوات يبنيه، فيريد أن يتصرف بسرعة وفي نفس الوقت يريد أن يحافظ على صورته، لأنه لو جرى فسيظهر خوفه أمام حاشيته، فجاءت كلمة "يسعى" التي هي وسط بين المشي الذى فيه طمأنينة، والجري الذى يدل على أنه خائف، هو يريد أن يحافظ على صورته أمام جنوده وهذا فقط ما يمنعه من الجري.

"ثم أدبر يسعى" ماذا حدث بعدها؟ خاف أن يتركه جنوده، "فحشر فنادى"[النازعات:٢٣].الحشر معناه الجمع مع الضغط، أي جمع كل ما يستطيع، جمع كل الجنود، وكل الناس، وكل ما يقدر عليه، وقال بأعلى صوته: "...أنا ربكم الأعلى""[النازعات:٢٤]. لماذا فعل هذا؟ ما علاقة دعوة موسى عليه السلام له "هل لك إلى أن تزكى" بأن يجمع الناس ويقول لهم "أنا ربكم الأعلى"؟!

البشر ضعفاء، لذلك أي مَلك من البشر لكي يحافظ على ملكه –وهو مُلك غير ذاتي– أي أن فرعون ليس له قدرة خارقة على أن يُخضِع الناس، فرعون يُخضِع الناس بأدوات، يستميلهم مثلًا بأسلوب خطاب مشاعري، يقنعهم أنه يخاف عليهم، يخاف أن يُبَدِّل موسى دينهم، يخاطبهم قائلاً: يا قوم، يكسب تعاطفهم بأسلوب عاطفي تارة أو بالسحر تارة، وورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: [٥]"كان فيمن قبلكم ملك ظالم وكان له ساحر" دائماً ملوك البشر كي يحافظوا على ملكهم لابد أن يستخدموا أدوات تحافظ على هذا الملك، فهو لا يملك قدرة خارقة ذاتية.

بعض الإسرائيليات حاولت أن تفسر لماذا قال فرعون: "أنا ربكم الأعلى" ولماذا صدقه الناس.. فبعضهم قال إن فرعون كان لا يدخل الخلاء، ولا يخرج منه ريح، كانوا يشعرون أنه ليس بشرًا عاديًّا ككل البشر، ولكن هذا كذب، إنه فقط يستعمل أدوات معينة: الإعلام، السحر، اقتصاد قارون، القوى العسكرية برئاسة هامان، يستعمل فرعون كل هذه الأدوات لخداع الناس، لذلك يخاف جدًا من فقد هذه الأدوات، يخاف من الانشقاقات، يخاف من الانقلابات، ولهذا بمجرد أن سمع كلام موسى عليه السلام، جمع الناس بسرعة، جمعهم كلهم خشية أن يتأثر أحدهم بكلام موسى، حشرهم والحشر فيه معنى الجمع والتراكب والازدحام، ثم أكد عليهم قائلاً: "أنا ربكم الأعلى"، لا تسمعوا كلام موسى ولا تطيعوه، كل هذا من خوفه على ملكه ومكانته، ولكن الله عز وجل هو الملك الحق الذى لا يحتاج إلى أحد.. لذلك فرعون لو لم يكن معه جنود فلن يبقى له مُلك ولن يظل مَلكًا.

نحن نقول: مالِك يوم الدين، فالله سبحانه وتعالى هو الملك الحق وهذا الملك الحق يظهر جليًّا واضحًا يوم الدين، فلا يبقى لأحد ملك إلا الله عز وجل، وكأن الأمر يرجع لأصله السابق على إحدى تفسيرات الحديث: "كان الله ولم يكن معه شيء"، تأتي لحظة: الله عز وجل يميت كل الخلائق، كل الخلق يموتون ولا يبقى أحد، ثم يقول الله عز وجل "...لِمن الملك اليوم..."[غافر:١٦]؟ ثم يقول سبحانه وتعالى: "...لله الواحد القهار"[غافر:١٦]، تأتي هذه اللحظة التي لا يبقى فيها أحد إلا الله عز وجل، لكي يظهر الملك الحقيقي، يظهر أن الله عز وجل لا يحتاج إلى أحد، والكل يحتاج إلى الله عز وجل.

الله هو الحي القيوم، يقيم الناس والملائكة، ويقيم السماوات والأرض، لا يحتاج إلى أحد سبحانه وتعالى، ولكن الكل يحتاج إليه حتى الملائكة التي تدبر الأمر تحتاج إلى الله "إذ يُوحِي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين ءامنوا" [سورة الأنفال:١٢]، قبل أن يقول الله عز وجل للملائكة الأمر، يقول لهم أنا معكم، كأن الملائكة لا تستطيع أن تُدبِّر ولا تتحرك إلا بتوفيق من الله عز وجل، هذا مُلك الله عز وجل، لكن ملوك البشر يحتاجون أدوات يتحركون بها، لو سُلِبوها ضاع ملكهم.

[٥]- مسلم (٢٦١ هـ)، صحيح مسلم ٣٠٠٥ •صحيح•

فرعون خاف على ملكه فحشر جنوده ونادى بأعلى صوته: "أنا ربكم الأعلى" هذه الكلمة الخبيثة التي خرجت منه كانت سببًا في أن يأخذه الله عز وجل بعذابه. المتكبرون استمتاعهم في الدنيا أن يعبدهم الناس، ينازعون الله عز وجل في ربوبيته، ينازعون الله في حاكميته وألوهيته، قال الله عز وجل: "العز إزاري والكبرياء ردائي مَن نازعني فيهما عذبته"[٦]، استمتاع المتكبر أن يُعبد من دون الله، لذلك إبليس – عياذًا بالله– يضع عرشه على الماء كأنه يريد أن يضاهي عرش الله عز وجل، ويبعث سراياه، وعند طلوع الشمس فإنه يضع قرنيه عندها، ذلك أحد توجيهات الحديث: "تغرب الشمس بين قرني الشيطان" ولذلك توجد كراهة للصلاة في هذا الوقت، بعض الناس يسجدون للشمس في هذا الوقت، فعندما يضع قرنيه بجانب الشمس يشعر إبليس بنشوة الانتصار وأن الناس يسجدون له، عنده نقص! هذا الكِبر الذي بداخله دائمًا يُعوِّضه بأن يطغى على الناس، وهذا يتضح فى قول الله عز وجل عندما ينادي: "يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس..."[الأنعام:١٢٨]والإنس يقولون: "...ربنا استمتع بعضنا ببعض..."[الأنعام:١٢٨]، الإنس يستمتع بأن يأتي له الجن بشهواته، والجن يستمتع لأنه متكبر والإنس يطيعونه فهذا يُرضي كِبْرَه.

"فقال أنا ربكم الأعلى ¤ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ¤ إن في ذلك لعبرة لمن يخشى"[النازعات:٢٤-٢٦].

نكمل إن شاء الله تفسير الآيات في الدرس القادم وجزاكم الله خيرًا.

[٦]- عن [أبي سعيد وأبي هريرة]:العزُّ إزاري والكبرياءُ ردائي فمن نازعَني منهما شيئًا عذَّبتُهُ

البزار (٢٩٢ هـ)، الأحكام الشرعية الكبرى ٢٠١/٣ •تفرد به حفص عن الأعمش •